

ذكرياتى عن التدخين

تقديم

هذه محاضرة ألقيتها في جمعية الهداية الإسلامية بالقاهرة يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩٤٧ ، وقد رأيت أن أضعها أمام أبصار المدخنين ، وخاصة الشباب منهم ، لعل في هذه الذكريات عظة تذكر أولئك السائرين نحو لإدمان التدخين ، فتردهم إلى الصواب ، وتصدهم عن هذه الآفة الحبيثة التى ابتلى بها الشرق المسكين ، نخسر بسببها المال والصحة والعزيمة ... إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وماتوفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

أحمد الشرباصى

ربه أن يجعلنى وقفاً على طلب العلم ، كما كانت العادة شائعة عند أهل الريف ..

وبعد أن حفظت القرآن الكريم ، رحلت من قريتى « البجلات » وهى من أكبر القرى فى مديرية الدقهلية إلى معهد دمياط الدينى العالمى الإسلامى ، ولبست العمامة والسكاكولة مع أن مصرى لم يتجاوز يومئذ الثانية عشرة وكان نصيبى أن أسكن مع زميل يكبرنى بسنوات ، وإن كان متخلفاً عني فى الدراسة ، وكان من المدخنين المدمنين ، الذين يبذلون أكثر أموالهم فى اللقائف ، فإذا ما دخن واعتدل مزاجه — كما يعبر — فعلى الدنيا بطعامها وشراها ومتاعها السلام .

وكثيراً ما كان ذلك الزميل ينتهى من طعامه عجلًا ثم يجلس على المقعد ، مسنداً ظهره إلى مؤخرته فى تيه وخيلاء ، ثم يشعل لفافته ، ويمتص دخانها بشفتيه ، بعد أن يتناولها بطريقة تمثيلية ، ويضعها فى جانب فمه ثم ينفث سحب الدخان فى جو الغرفة الضيقة الحظيرة ذات المنافذ القليلة ، ويده مجلته أو كتابه يقرأ فيه بلا متابعة ، ونظراته الحاملة الزائفة تتردد هنا وهناك ، فيخيل إلى — لقلة تجاربى — أن سحب الدخان تنصاعد وكأنها ألوية مجد أو شارارات بطولة ، وأنهم أن ذلك الزميل يجلس جلسة أمير أو عظيم ، وأنتى لن أدرك العظمة والراحة إلا إذا اقتديت به ، وكنت مثله فى

معذرة إذا تحدثت عن نفسى ، فقصصت جانباً من ذكرياتى فيما يتعلق بالتدخين ، وهذا لا يعنى أننى رجل ذو تاريخ ، فإنتى ما زلت فى أول الشباب ، ولكن الموقف هو الذى يفرض على أن أنحدث عن ذكرياتى التى بقيت فى خاطرى حول آفة التدخين المنتشرة الفاشية التى تعود على البشرية بمختلف الأضرار والأخطاء . وأنا على الرغم من شبابى مدخن قديم ، ومذنب تائب ، وغريق كانت أمواج العادة السخيفة الأثيمة وهى عادة التدخين تتلاعب بى ، وتدنيئنى من حتى العاجل خطوة بعد خطوة ، ولكننى نجوت بفضل الله ورحمته .

ولعل المدخن التائب ، الذى جرب الدخان ، وأدرك ما فيه من سيئات ، يكون حكمه على هذه العادة أقرب إلى الصحة والحقيقة من حكم الشخص الذى لم يدخن ولم يجرب التدخين عملياً لمدة كافية للاقتلاء والاختبار وكذلك يكون حكمه أصدق من المدخن الذى لا يزال واقفاً تحت تأثير التدخين ، والذى لا يدرك الفرق بين حالة المدخن وحالة تركه . . أما من ذاقه ثم أغلت من أمره فقد خبر الحالين ، وعرف الموقفين ، فكان بهما جد خبير .

فلندخل فى صميم الذكريات ، ولنعد إلى الوراء أعواماً تقارب العشرين ... فى ذلك الحين كنت غلاماً أحاول حفظ القرآن الكريم ، لأنتسب إلى أحد المعاهد الدينية التى تتبع الأزهر الشريف ، فقد طاهد والذى

التدخين !!! .. ولكنى كنت أعود فأستذكر قامته
أبى الفارعة، وكراهيته الشديدة للتدخين، وحملته القاسية
العنيفة على كل من يراه مدخنا، كبيراً كان أو صغيراً،
وقسمه بأنه لو رآنى أو رأى أحد أبنائه يدخن لما
كان له من جزاء سوى طرده من بيت الأسرة إلى الأبد .
كنت أتذكر ذلك فأخاف ، وأرتد عن الإقدام
على التجربة ..

ووسوس الشيطان ذات يوم لصديقى فجعل يغرينى
على التدخين ، ويذكرنى بالحرية الشخصية ، ويقول لى إن
التدخين شعار الرجولة . وسبب الهدوء والراحة ،
وهو الذى يزيل الهموم ، وينظم التفكير ، وينشط
الدهن ، ويقضى على الاضطراب والحزن ، ويبعث على
الإبداع فى الخيال ، ويحرك القلم إلى إنتاج الأدب . . .
وتبرع — عفا الله عنه وغفر له ما قدمت يداه — فأتبع
تشجيعه القولى بتشجيعه العملى ، فأعطانى ذات يوم لفافة
بالجنان ، لأشربها على سبيل التجربة ، بعد أن استنفد كل
وسائل الإغراء فى تزيينها وتحبيدتها إلى فأخذت اللفافة
وأشعلتها ، وأقبلت عليها أدخنها بلا وعى ولا تدبر .

أحسست حين ذاك بدوار فى رأسى ، وضيق فى
تنفسى ، وازدياد فى حرارة جسمى ، وغليان فى دمى ،
وغشاوة فى عيني فلا أكاد أبصر ما أمامى ، وخيل لى أن
الحجرة قد ضاقت بى فكأنها قبر . . . وشكوت لى إلى
الصديق ما أجد ، فهون على الأمر ، وابتسم لى ، وقال :
لا تخف ، فأنت الآن فى دور التجربة والتمرين ، ولن
تدرك لذة التدخين إلا إذا تعودت عليه ، وعرفت كيف
تبلع الدخان ، وكيف تقسم نفته بين فك وأنفك ، وذلك
لن يتم لك إلا إذا صرت من اللدمنين !! .

وأخذ الزميل — غفر الله له — يواصل إغراءه لى
يوماً بعد يوم ، فأحياناً يعطينى سيجارة كاملة ، وأحياناً
« نخمس » أى يأخذ خمسة من اللفافة وأخذ خمسة ،
أو بمعنى آخر : نققسمها فيما بيننا ، وهكذا .

ومضت فترة من الزمن ، وأنا أوهم نفسى بما أزمه
أو يزعمه لى زميلى من لذة التدخين وتقويمه للزواج ،
وبعدها قلت لنفسى : إلى متى سأظل حالة على غيرى ؟ وإلى
متى سأظل أدخن على حساب زميلى ؟ . وكيف أكون

« كفيفاً » ثم أخاصم « الدكان وبائع الدخان » ؟ . لا بد
من الاسترجال ، ولا بد من إظهار الفتوة « والصبوة »
وسعت بى قدمائى لأول مرة فى حياتى إلى بائع الدخان
وأنا أوخر رجلاً وأقدم أخرى ، واشترت علبة لفائف
بقرش صاغ ، فقد كان ذلك الدخان الملعون رخيصاً يوم
ذاك ؛ وليت يدى قطعت يوم امتدت إلى هذا الشراء ،
بل ليت رجلى شلت يوم سعت بى إلى هذا الوباء ، فقد
كسبت على نفسى صك الشقاء بهذا البلاء الممثل فى
ذلك الداء ! .

* * *

وجدت فى الطريق مشكلة أخرى ؛ فكيف السبيل
إلى حلها ؟ . إننى أستطيع أن أدخن فى الحجرة مع زميلى
دون أن يرانا أحد ، ولكننا نقضى أغلب يومنا خارج
الحجرة ، وشهوة التدخين تتملكنا فى كثير من الأحيان ،
فكيف لى بالتدخين إذا كنت بين زملائى فى المعهد ،
أو كنت على مرأى من شيوخى وأساتذتى ؟ . الويل لى
كل الويل إذا عرف عني واحد من هؤلاء أننى من
شاربى الدخان . وإلا كسبت عندهم فى قائمة المجرمين
الآثمين ! . . نعم الويل كل الويل لى إذا فعلت ذلك ،
فقد كنت يومها فى بيئة محافظة هى أشبه بالبيئة التى
يتحدث عنها الأستاذ المازنى فى كتابه « خيوط العنكبوت »
حين يسرد بعض ما حدث له أثناء تجربته لشرب الدخان
فى شبابه مع أصدقائه من التلاميذ فيقول :

« وإذا شاقنا الدخان ، واشتهينا أن نقلد الرجال ،
اكتتبنا بالملايم ، وجعناه قرشا نبتاع به علبة فيها عشر
سجائر ، نقسمها بالحق ، ونبغى لنا مكاناً غير مطروق
ندخنها فيه — كما يفعل الحشاشون الآن — حتى إذا
صارت أعقابها على الأرض ، ذهبنا نمحو أثر التدخين
من أصابعنا وأفواهنا ، فأما أيدينا فنغسلها ، ونفركها ،
ونكاد نسلخ جلدنا ، وأما أفواهنا فنعالجها بالقرنفل ،
أو « السنسن » ، والأول أفضل لأنه أرخص ، ثم يقبل
بعضنا على بعض ، فهذا يفتح فمه على آخره ، وذلك يمد
أنفه ليشم به ، حتى نطمئن ، وهيئات ، فما كنا نجرؤ
مع ذلك كله أن نخاطب أهلنا عن قرب ، لئلا يشموا
رائحة الدخان » ! .

لعم كنت في بيئة لا يزال فيها مسكة من الخجل والحياء ، ولذلك كنا نلاقى الشدائد في إيجاد المكان المناسب للتدخين ، حتى لا نضبط متلبسين بتلك الجريمة ، فتارة يحتفى الإنسان في المرحاض ، وتارة يلجأ إلى الحقول البعيدة ، وتارة يهرب من يومه المدرسى ، لينزوى في ركن قصي يدخل فيه تلك اللقافة اللعينة . . أما اليوم فقد عم البلاء وطم ، ورحل الحياء فلا حياء ، فالشباب يدخلن أمام زملائه وأمام أساتذته وأمام والديه ، فإذا خوطب في ذلك ثار وغضب ، وبكى لضياح الحريات والكرامات !! .

وبتوالى الأيام أصبحت من المدمنين ، وكان التدخين بطبيعة الحال على حساب طعامنا وثيابنا وأخلاقنا ودروسنا ، فنحن نفضل شراء « السجائر » على شراء الغذاء الطيب ، ولنا كل فولا وطعمية وفجلا ، ثم لنشرب بعد ذلك سيجارة ، فهذا خير من الاجوم بلا سيجارة ! . ولتتمزق جواربنا دون النفقات إليها ، فإن ثمن الدخان كثير ، والموارد قليلة ، واسنا من أبناء كبار الأثرياء ، فليس يفيض معنا بعد شراء « الكيف » ما نستطيع به شراء هذه اللوازم .. وأحيانا كان الشوق إلى السيجارة يطوف بالإنسان أثناء الدرس ، فلا يفهم من المدرس شيئا على الإطلاق ، وقد ينتحل الأعذار ليفر من الدرس بعيداً ثم يدخل لقافة . . .

وجئ التدخين على أخلاقنا ، فكان الواحد منا يثور ويسب ويلعن ، ويخرج عن حدود الذوق وقواعد الأدب مع زملائه ورفقائه ، إذا لم يعدل « مزاجه » في مواعيده ، أو حاول أحد أن يحول بينه وبين التدخين ولو على سبيل المزاح ، لأن أمثال المدخنين تقول : « الهزار في كل شيء إلا في السيجارة » ! .

وجئ التدخين على دروسنا ، فقد كان يطلب منا أحيانا أن نشترى بعض الكتب ، أو الأدوات اللازمة لدروسنا فمناطل ونسوف ، لأننا نحب التدخين ، وهو يستولى على أكثر « المصروف » فلتذهب الدروس ، ولتتحرق الكتب ، مادامت علبة السجائر موجودة في الجيب وهي حامرة ، أو نصف حامرة على الأقل ! .

و كنت أثناء إقامتي في دمياط بعيداً عن أهلى وأسرتى في « البجلات » ، ولكن العام قد انصرم ، والامتحان قد انتهى ، والعودة إلى القرية قد حلت ، فكيف السبيل ؟ ! . وماذا يكون الموقف لو عرف والدى أننى أدخل ؟ ! . إن لائى سلطة الوالد الربى الذى يرى من حقه ، بل من واجبه ، أن يؤدب أولاده بالضرب والطرد والحرمان من كل شيء ، والتكليف بمرهق الأعمال عند الإذئاب أو الإهال ، فكيف السبيل ؟ ! . لو أننى أفضت في تبيان الأوقات والجهود والحيل والوسائل والأساليب والطرق التى كنت أبذلها وأقتن فيها ، وأتعب من أجلها ، وأضحي بالكثير في سبيلها ، حتى تنهيا لى فرص التدخين ، لhal الكلام سامعيه ، وأفزح المتدبرين فيه ، ولست أبالغ حين أقول إن الشباب الذين يدخلون ، ويوجدون في بيئات محافظة ، يضيعون ما يقرب من نصف أوقاتهم في الحصول على الدخان ، وتميئة أمكنة التدخين ، والقيام بالتدخين نفسه بعيداً عن الأنظار والرقباء ؛ بينما كان يجب أن ينفقوا هذه الأوقات العزيزة الغالية فيما هو أجدى وأنفع ، ولكن أين من يسمع ؟ ! .

أذكر من بين الأمثلة الكثيرة أن شهراً من شهور الصوم مر على وأنا مع أسرتى في القرية ، وكنت أتناول السحور كل ليلة مع والدى وإخوتى ، ثم أعود للنوم مع أخى الصغير فى حجرة خاصة ، فكيف أدخل « لأحبس » الطعام كما يعبر المدمنون ؟ كيف ذلك وأنا لا أستطيع أن أدخل أمامهم ، ولا أن أدخل فى حجرة النوم ، لأننى أخاف أن يرانى أخى الصغير ، فينقل ذلك إلى أبى ، وهناك تكون الطامة ! . .

أتعرف ماذا كنت أصنع ؟ . . كنت أذهب عقب السحور كل ليلة إلى المرحاض بحجة قضاء الحاجة ، ثم أغلق الباب على إحكام حتى لا تتسرب الرائحة ، ثم أدخل فى حذر وترقب ، وأنا أظن فى كل نائمة أو همسة رقيقاً أو جاسوساً فإذا ما انتهت السيجارة أخذت فى العملية المرهقة ، وهى عملية التخلص من آثار الجريمة ، فأبدأ بتبوية المرحاض بفتح بابه وإغلاقه مرات سريعة متتابعة ، حتى تزول الرائحة ، خشية من دخول فرد من الأسرة بعدى . .

وأظلم بعد ذلك أنظف في أصابعي وأسنانى بللاء حتى أظن أن الرائحة الخبيثة المنتنة قد زالت ، وبعد وقت طويل أعود إلى النوم !!

و ذات يوم ضاقت يدي عن ثمن الدخان ، والويل للمدخن إذا فقد ثمن الدخان ؛ فقضيت يوماً أسود الجوانب مغبر الأنحاء ، وأنا مضطرب الأعصاب هائج الشعور ، لا أكاد أعقل ما يقال ، ولا أحكم ما أعمل ؛ وخافة رأيت زميلاً يدخل فهرعت إليه أسأله سيجارة ، وكان كزاً بخيلاً ، فاعتذر بأنه لا يوجد معه غير التي يدخلها ، فسألته أن تقسمها معاً ، فقال في غلظة : من فضلك لا تعكر على مزاجي . فنالني من الحزى ما لا أستطيع تصويره ، ولم يتعرض للمدخنون لمثل هذه المواقف المحرجة ، وخاصة في صفوف الصغار ، أو في البيئات الشعبية التي لا يتهاون لها دائماً كل ما تريد . . .

وكدت أتعلم من التدخين كما يتعلم مئات من المدخنين السرقفة والاحتيال ، بل أصارح بأنني وقعت ذات يوم في شيء من هذا القبيل ، ففي الليلة التي عقد فيها قران أخى الكبير ، وكل إلى أن أقوم بمهمة توزيع السجائر على المدعوين في الاحتفال ، جرياً على المادة السيئة التي ابتليت بها القرى المصرية ، وأعطاني أخى عدداً كبيراً جداً من علب السجائر ، فاحتجرت لنفسى من بين هذا العدد ست علب كاملة ، وأخفيت في مكان أمين ، وظللت أدخن منها بحانا حيناً من الزمان !!

وعلمني التدخين الكذب ، فقد بلغ والدي ذات يوم أثناء مدة تدخني أنني أدخن ، فلم يصدق ذلك ، لأنه يعتقد في الصلاح والصدق والأمانة ، ولكنه أراد أن يطمئن قلبه ، فدعاني إليه وسألني : هل تدخن ؟ . . . فكذبت عليه وقلت : كلا . . . فقال : هل تقسم على ذلك . فاندفعت في البهتان وقلت : أقسم . . . فصدقني وتركني ، ولولا التدخين ما ارتكبت هذه المعصية ، فقد ألجأتني التدخين اللعين إلى الكذب والحنث في اليمين وعلى من ؟ . . . على الذي يثق بي كل الثقة . . . وآه من تأنيب الضمير الذي ظل يرهقني بجبروته مدة طويلة من الزمن كلما تذكرت هذه الخطيئة !!

وعلمني التدخين ضيق الصدر وقلة الصبر ، فأنا أثور

لأقل سبب ، وأنا أمزق ما يبدي من أوراق إذا استبنت فيها أى تشويش أو خطأ ، وأنا أضرب إخوتي الصغار إذا ما اقترفوا شيئاً هيناً كان يمكن علاجه بالنصح والإرشاد . . .

وعلمني التدخين أنني كنت لا أحسن عملاً من الأعمال ، ولا أتقن واجباً من الواجبات ، وخاصة في الصيف ، فإذا بدأت عملاً بعد التدخين أخذ العرق يتصبب من جسمي ، وأحسست بدوار في رأسي ، وتمالك في أعصابي ، وتراخ في مفاصلي ، فإما أن أجنح إلى الراحة ، وإما أن أضع ضغطاً على إباله ، وأزيد الطين بلة ، فأعود إلى التدخين . . .

ثم مر على حين من الزمن أخذت فيه الشهادة الابتدائية من معهد دمياط ، ثم انتقلت إلى الزقازيق فأخذت من معهد الضخم الشهادة الثانوية ، ثم انتسبت إلى كلية اللغة العربية — حرسها الله معقلاً للغة القرآن وأدب العرب — وكان قد مر على أثناء ذلك ما يقرب من ثمانية أعوام وأنا أدخن ، حتى أصبحت عبداً ذليلاً لعادة التدخين الضارة المهلكة ، لا أستطيع أن أنهض بعمل إلا إذا دخنت ، وياخيبي في واجباتي إذا لم أتمكن من التدخين . . .

وأخذت أصابعي تصفر ، وأسنانى تسود ، وفي تسوء رائحته ، وأخذ وزني ينقص ، وشهيتي للطعام تقل ، وقوتي الجسمية تتناقص ، ونشاطي يخمد ، فلا أثبت لنضال ، ولا أستطيع أداء عمل شاق ، ونسيت السرعة في الجري ، أى مع أنني كنت أمهره ، فقد ظلت زمناً أجيد لعب كرة القدم ، ومع ذلك أسكت على مصيبي ولا أحاول الخلاص من بلوتي ، فكان حالي قريباً من حال المازني حين يصور ابتلاءه ببلوى التدخين فيقول : « إذا كانت لهذا الدخان — أو التبغ أو الطباق كما سماه لي المرحوم الشيخ حمزة فتح الله وكنت قد سألته عنه — أقول : إذا كانت لهذا الطباق مزية أو فائدة فلست أعرفها ، فما عرفت إلا ما أثمرته بي شجرته اللعينة من الآلام والمتاعب ، وقد تعلقت به وأنا صبي حدث ، ولكن أمي صرفتني عنه برفق ولطف ، غير أنني ما بلغت التاسعة عشرة حتى كنت قد اعتدته ، وبعد

على التدخين في إحدى وثلاثين سنة لكان لي الآن فيلا جميلة ، أنعم بالعيش فيها . أليس كذلك ؟ » اه .

وزداد الحال سوءا حينما اختلطت في آخر السنة الأولى من إقامتي في القاهرة بجماعة من الأصدقاء الذين ينتسبون إلى الأدب ، ويسرفون في التدخين ، وكنا نقضى الليل إلا أقله في سهر قائم على المجادلة والمناقشة والمراجعة ، ولكن سحب الدخان لا تنقطع من جوه أبداً . فعلم الدخان موجودة بكثرة أمامنا وهي مفتحة لكل راغب في التدخين ، وأصنافها مختلفة ولكل منها مذاق خاص ، والرغبة في التدخين لا تزال تتجدد ، فكان المكان الذي نجلس فيه يتحول من أجل هذا إلى مدخنة كئيبة سوداء ، وكنت أخرج من هذا السهر الطويل وأنا محطم القوى ، منهوك الأعصاب . مصدوع الراس متخاذل الأعضاء ..

وكنت كلما فكرت في ترك التدخين تسيطر على الضعف الإنساني المرذول ، وتراخت عزيمتي وإرادتي وأخذت أغالط نفسي ، فتارة أسوف وأؤجل ، وتارة أزعم أنني سأقلل من التدخين شيئاً فشيئاً حتى أتوب عنه نهائياً ، وهكذا دون فائدة أو جدوى !

وفي ليلة لا تنسى ، خرجت من السهرة مع الرفقاء بعد أن أسرفت في التدخين ، وأخذت طريقى إلى البيت وأنا في منتصف الليل ، وصدرى حرج ضيق ، وأفهامى تلهث ، ولكننى أطالج الداء بالداء فأواصل التدخين .. وبلغت المنزل ، وأخذت أقطع درجات السلم القليلة ، وكأنتى أحاول تحطيم الجلاميد ، فكما صعدت درجة أحسست الألم يتزايد ويتضاعف . وما بلغت الباب حتى أخذت أدق دقات عنيفة بيدي ورجلي . لأوقف الخادمة حتى تفتح لي فأرتدى على الفراش ، وكانت بقية السجارة لا تزال في يدي وأنا لا أشعر بها ، ولا ألقى إليها بالاً ؛ ولجأ ففتح الباب ، وإذا صوت والدتي التي قدمت من الريف على غير ميعاد يلقاني لأنما ومثوباً ومؤدباً ومهذباً ؛ بعد أن رأت السجارة في يدي وأدركت من حركاتي مبلغ ضعفى وتخاذلى ، وبدأت تتحدث حديث الوالدة الحريصة على مصلحة ابنها ؛

عام واحد حاولت مرة أن أدرك تراما (وكنت على مسافة مئة متر منه ، أو حول ذلك) فركضت ولكننى كففت لأنى تعبت ونهجت ولهئت كالكلب ! فتحسرت ، ثم ثرت فأخرجت علبة السجائر فرميت بها ، وآليت ألا أعود إلى هذا البلاء . واستطعت أن أنقطع عن التدخين ستة شهور أو سبعة بلا عناء ثم عدت إليه شيئاً فشيئاً بفضل الإخوان ، فقد كان الواحد منهم يقدم لى سيجارة فأعتذر ، فيلح فأقبل .. وتكرر هذا فاستنير شوقى إليه ، ورجعت إلى شرمما كنت ، ولازلت أدخل إلى الآن ، فلي إذا استثنينا الشهور الستة أو السبعة التي أشرت إليها ، إحدى وثلاثون سنة وأنا أدخل هذا السم ، ولا أستطيع أن أجزم بأن الدخان هو المسئول عما أتانى ، ولكننى أعرف أن صوتى أجش ، وصدرى خربان ، وقلبي متمعب ، ومعدتى فاسدة ، وأعصابى تالفة وعقلي يقول لى : إنه من الخير الانقطاع عن التدخين ، ولكن أعصابى تخوننى ، ولا خير فيما يقوله الأطباء لى ، ومن دواعى الأسف أنه لا يوجد Agence يشتري منه المرء بديلاً من هذه الأعضاء القديمة . وقد رأيت مرة رواية سينمائية فيها لص فاتك يتحمل عن زميل له جريمة ويؤوى عنه بإثمها وعقابها . وقد سأله زميله فى ذلك فقال إنه قد وقع وانتهى أمره ، فإذا أرادوا عقابه على كل ما اقترف فسيخرج على الأقل بالسجن مائة سنة ، فماذا يضره أن تضاف إلى ذلك بضعة سنوات أخرى .. وأنا أتعزى بمثل ذلك وأقول لنفسى إنه لا فرق بين أن يعيش المرء إلى الثمانين أو يقصر عن ذلك ، أو يزيد فلن يحس الذى يموت بما فاتته أو نقصه ، وما دامت النهاية هى هذا الفناء المحتوم فقد استوى طول العمر وقصره ! . ولكن هذا كما ترى ليس إلا مغالطة ليس فيها عزاء جدوى . لأنه متى كان لابد من الفناء فخير للمرء أن يعيش بصحة ، أو كما يقول المتنبي : (آلة العيش صحة وشباب) .

حاشية : متوسط ما أنفقته على التدخين يتراوح بين أربعة جنيهات وخمسة فى الشهر ، وكان المتوسط قبل الحرب العظمى الماضية حوالى جنيهين (قال المازنى كلامه هذا سنة ١٩٤١ م) . فلو أنى كنت ادخرت ما أنفقته

المخلصة في نصيحها ؛ وإذا هي تختم حديثها بذلك الإنذار الخطر : إني لن أَرْضَى عنك مادمت تدخن ! .

ودارت بي الأرض الفضاء . وتذكرت جرائم هذا الدخان اللعين معي . وماجنأه على من نكبات ، وتذكرت مكانة الوالدة في نفسي . ومزلتها عند الله . وكنت في حالتي هذه على أتم الاستعداد للاستغفار والمتاب . فإذا بصوتي يهدح كأنه نبرات باك حزين . وإذا بي أمأهد في صدق وعزم وإصرار على ترك التدخين إلى الأبد . وإذا بي أخرج ما بقي في جيبى من لفائف . وأسحقها بقدمي ، وأقول ، وكأنى أهرز الأرض كلها بقولي : لن أعود إلى التدخين مادمت حيا . وهذا عهد وميثاق ! .

ونمت المعجزة ، ورفعت عن بصرى الغشاوة ، وهديت بعد ضلالة ، ولم يمر على سوى أسبوع كنت فيه مضطربا بعض الشيء من جراء الانتقال من حال التدخين إلى حال التوبة والطهارة ، ثم استقمت بعد ذلك على الطريق ، فعادت إلى نضرة وجهي وسرعتي في صملي ، وزاد وزني ، وتفتحت شهيق للطعام ، وأصبحت قادرا على المشي الطويل والجري العنيف ، وحاد لاسناني لونها الطبيعي ، وزالت رائحة فمى ، وزال الضيق عن صدري ، وأصبحت متحررا من إيسار العادة ، منطلقا من عبوديتي للمكيف ، وأنقعت ما كنت أنفقه في التدخين على وجوه صالحة تنفعنى ، وبذلك كسبت ماديا وصحيا ونفسيا ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

يا شباب الجبل الجديد ، إنها نصيحة مجرب ، وإنها لكلمات أخ مخلص ، فاحذروا التدخين اللعين ، فإنه نكبة لا يقدر أضرارها إلا من أصيب بها ، وإذا كنتم ترون كهولا قد اعتادوا التدخين ، وعجزوا عن تركه فأولئك أمة قد سبقتم بما لها وما عليها ، ولم يعد في عزائمها وقود .

أما أنتم ، ففيكم الأمل ، وفيكم الرجاء ، فاشكروا نعم الله عليكم ، واحذروا هذه المقابح والمناكر ، ولا تفرطوا أو تسوفوا ، فعظم النار من مستصغر الشرر ، والله المستول أن يجعلكم جنودا طاهرين مطهرين ، لتكونوا هداة هذا العالم الحائر المسكين .

أحمد الشرباصى

المدرس بالأزهر الشريف

شكر وتقدير

١ - أهدي حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أحمد الشرباصى نسخة من كتاب « صفوة التصوف » للقدسى ، وهو الكتاب الذى حققه فضيلته وشرحه ونشره للمرة الأولى إلى صاحب المعالي اللواء محمد صالح حرب باشا الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية ، فبعث معاليه إلى فضيلته الخطاب الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزى الفاضل الأستاذ الكبير أحمد الشرباصى أعزنى قلبك ، أوأخلع على ييانك كلما أهديتني نفحة من وحيك ، أما أن تعزنى في فيض فضلك ، وتوقفى موقف العاجز عن بعض شكرك فما أنصفتنى ؛ وإنى أعيدك - وأنت الكريم - أن تخصب أنت وأجدب أنا . . . فإن لم تفعل فاقبل العذر ، وتجاوز عن التقصير . والسلام عليك ، والدعاء لك » .

٢٣ / ٢ / ١٩٥١ م الخالص : محمد صالح حرب

٢ - وكذلك أهدي فضيلة الأستاذ مجموعة من كتبه إلى مكتبة نقابة الصحفيين بالقاهرة فتلقي من السكرتير العام للنقابة خطاب الشكر الآتى وتاريخه ١٥ مارس سنة ١٩٥١ م ، وهو بإمضاء الأستاذ مصطفى بك القشاشى :

« حضرة صاحب الفضيلة العالم الجليل الشيخ أحمد الشرباصى الأستاذ بمعهد القاهرة بالأزهر الشريف . سلام الله وتحياته وبركاته ، وبعد : فقد تشرفت مكتبة النقابة بمجموعة من مؤلفاتكم النفيسة ، التى تفضلتم بإهدائها إليها ، وعددها ستة كتب . ونحن إذ نذكر لحضرتكم هذا الفضل الموفق ، لا ننسى تسجيلنا لكم الشكر المذخور .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

السكرتير العام لنقابة الصحفيين

مصطفى القشاشى